الرؤية العقلية

بالعقل نقول إنه بدون رؤية فالحركة مجازفة بالغة الخطورة. والإنسان كأحد مفردات هذا الوجود يتحرك مع الكون كله نحو الغد ، والغد مجهول ، والتحرك فى المجهول يلزمه مرَشدات ، نور وخريطة وبوصلة لتحديد اتجاه الحركة وتعديله كل فترة. مطلوب رؤية للكون الذى نعيش فيه ؛ لأنه يحتوينا ونخضع لسننه وحركته وتقلباته.

وفى زمن المادية الصارخة بقسوتها وعنفوانها ، يحسب الكثير من الناس أن الرؤية هى مجرد الرؤية الحسية المشاهدة بالعين ، وربما ما يدرك بالحواس الخمس أو بالأجهزة المادية التى صنعها الإنسان ، ولا يعترفون بغير ذلك ، وتلك بداية خاطئة تغرق الإنسان فى ظلمات مهلكات ، ومن يفعل ذلك يكون كمن يختار العمى. فالحواس بدون النشاط العقلى (المعنوى) تصبح محدودة الفائدة ، وتعمل بالفطرة شبه الآلية - بدون تصور - كما هو الحال عند الأنعام. ونتيجة التصور الخاطئ أو القاصر أن الإنسان يتحرك من ضلال إلى ضلال ، ولا يحسن التصرف ولا السلوك. ومن الطبيعى أن يسأل بعض القراء : كيف ذلك؟ والجواب نفصله فى الأجزاء التالية.

محدودية الحواس وزيغها

بصر الإنسان لا يستطيع أن يستشعر إلا فى أضيق نطاق كما وكيفا ، ضيق فى ضيق. فالمشاهدة المباشرة للأجسام المعتمة محدودة كما بعشرات الكيلومترات ، أما من حيث النوع فالإنسان لا يدرك من الأشعة إلا فى النطاق الضيق المحصور بين عالمى الأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء. وخارج هذا النطاق الضيق جدا فالإنسان فى هذه الدّنيا أعمى بشهادات المختبرات والعلم الحديث. وحتى فى نطاق الألوان التى نعرفها فما نراه أو نعيه قد يكون غير الحقيقة تماما والإشارات التى نستقبلها فى زمن متقارب جدا يتعامل المخ معها وكأنها متزامنة. وإليك التجربة التالية التى ذكرها "كوخ و كريك". يتم إضاءة قرص ضوئى أحمر لمدة ٢٠ ملى ثانية مثلا ، ثم يتبع ذلك ومضة من الضوء الأخضر لمدة ٢٠ ملى ثانية أيضا فى نفس المكان ، فنجد أن الشخص الذى يشاهد التجربة يقول أنه لم ير ضوءا أحمر يتبعه ضوء أخضر ، ولكنه رأى ضوءا أصفر فقط! أى كأنه تعرض للضوءين (الأحمر والأخضر) معا فى نفس الوقت فاختلطا عليه. ولكن الشخص لا يمكنه الإحساس باللون الأصفر (الغير موجود أصلا) إلا بعد أن تكون معلومة الومضة الخضراء تمت معالجتها ومكاملتها مع الومضة الحمراء التى سبقتها. معنى ذلك أنه فى خلال هذه المدة الزمنية (٤٠ ملى ثانية مثلا) يحدث حولنا العديد من الأحداث التى لا نراها ولا نشعر بها. لقد أدت التجارب من هذا النوع إلى القول بأن الزمن اللازم لمعالجة المعلومات

وصولا إلى الإدراك يبلغ نحو 60 إلى 70 ملى ثانية. ويوجد أيضا مددا مماثلة فى التجارب التى استخدمت الإشارات السمعية. ويمكن بالتدريب زيادة سرعة معالجة الإشارات بالمخ إلى حد ما.

ومنذ أربعة عشر قرنا من الزمان أخبرنا ربنا – تبارك اسمه – بقصور أبصارنا عن رؤية الشيطان وهو يسرح بيننا ، إذ يقول عز من قائل: ﴿... **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ...﴾ – الآية 27 – سورة الأعراف. والثقوب السوداء فى السماء يتعذر رؤيتها برغم عملقتها فى السماء الدّنيا ، لأنها تبتلع كل ما يصادفها حتى الضوء الذى هو وسيط الرؤية البصرية.

ويرى الإنسان الأشياء المجسمة وهذه تسمى رؤية – مجازا – أو رأى العين ، وهذه المجسمات لا يشترط أن تكون هى الحقيقة ، بل غالبا ما تكون الحقيقة غير ذلك والسراب أوضح مثال على ذلك ، يحسبه الظمآن ماء ، وهذا خطأ فى الحساب العقلى. فوظيفة العين هى النظر أما البصر فهو وظيفة العقل. وزيغ البصر سببه عقلى قبل أن يكون بسبب العين ، فالبضر يزيغ ، والأمثلة المادية على زيغ البصر عديدة وتفوق الحصر ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، ما ورد فى محكم التنزيل بشأن ملكة سبأ: ﴿... **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً** ...﴾ – الآية 44 – سورة النمل. أى أنها نظرته بعينيها السليمتين ، ولكن حسبته

بعقلها المذهول ، وعلى ذلك كانت النتيجة والتصرف الخاطئ ، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾.

وما يقال بخصوص محدودية بصر الإنسان يوجد مثله بالنسبة لباقى الحواس، كلها تعانى من قصور وزيغ. وكمثال آخر ، فسمع الإنسان محصور فى مدى 20 - 20000 ذبذبة فى الثانية ، خارج هذا النطاق الضيق جدا فالإنسان الكامل الحواس أصم بالنسبة لملايين الأصوات التى تصفع سمعه ليل نهار ولا يشعر بها. فالجن والملائكة تتكلم من حولنا ولا نسمع ولا نعى ولا نشعر بما تقول ، والأنعام ترى مالا نرى وتسمع مالا نسمع. فمن يعرض ويأبى الهداية ويحصر نفسه فى موروثاته وما تدركه حواسه المادية فقط فقد حرم نفسه من نور الهدى وعرض نفسه للطرد من رحمة الله ويتم تصنيفه ضمن مرضى القلب ، لا تشفيه كل مستشفيات الدنيا ولو اجتمعت: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ الآية 23 - سورة محمد (صلى الله عليه وسلم). وحتى فى مجال البيان ، فمن يتكلم بلغة لا يعرفها السامع ، فبماذا يتميز عن الأخرس! ومن يستمع للغة لا يفهمها فبماذا يتميز عن الأصم فى هذه الحالة!

بالنسبة للقضايا المعنوية فالعمى والصمم والبَكَم أشد وأخطر من القضايا المُجسمة ماديا ؛ لأن الحاسة هنا محدودة الحيلة وغير واضحة المعالم أو ربما لا حيلة لها ، فهل آن للإنسان أن يتواضع! وكثيرا ما نسمع قائلا صادقا يقول: رأيى فى هذه المسألة كذا وكذا. فيرد عليه آخر أصدق منه قائلا: إننى أرى

غير ذلك. يحدث ذلك فى الأمور المعنوية كثيرا ، فبماذا يرى كل منهما رأيه؟ بأى حاسة ، أو بأى وسيلة إدراك؟ بل إن الإنسان يبيت برأى ويصبح برأى آخر.

وإن كان عشرة أفراد أو أكثر يتحاورون فى قضية ، فكيف يراها كل منهم بصورة مختلفة وهو صادق! هل حقيقة القضية متعددة؟ الجواب : لا ، إنها نفس القضية ، ولكن قد تكون عديدة الوجوه ، وهى فى الغالب كذلك. وسبب الاختلاف أن كل شخص يرى القضية بوسيلة رؤية مختلفة ؛ وهذه الوسيلة هى العقل. وأحيانا يقال إن كل شخص ينظر للقضية من وجهة نظره ، كيف والمسألة ليست بصرية؟ إنها الرؤية بالعقل وهى أعمق من رؤية البصر أو إدراك الحواس. الرؤية تبنى على المعلومات التى تتدفق على العقول ليل نهار ، وعلى الخبرات والخلفيات التى تتشكل بها. ولذلك فالرؤية المعنوية ذات طبيعة ديناميكية متطورة وليست استاتيكية ، وعليه فلا بأس من تغير الرؤية فذلك هو الأمر الطبيعى طول العمر ، ولكن الخطورة تكون فى كثرة التذبذب أو ضعف الرؤية.

والتفاوت الشديد فى الرؤى يمكن أن يؤدى إلى الصدام ، فالآخر يرى الشىء (أو يراك) بعقله هو وليس بعقلك أنت ، وكل منكما لا يرى الحقيقة مكتملة بل تتفاوت الرؤى فى إدراك ما يتيسر من الحقيقة. ومن المهم والمفيد أن تضع رؤية الآخر لك فى الاعتبار ؛ لأنها أساس تصرفه تجاهك. ويمكن تغيير هذه الرؤيه

نسبيا بتوصيل بعض المعلومات ليقين الآخر ، وذلك يحتاج لصبر وتحين الفرص المناسبة.

أيضا من تكون حدود رؤيته محصورة فى بضع سنين أشد تواضعا ممن تكون رؤيته ممتدة لعشرات السنين وكلاهما حبيس فى ظلمات المادة وفى أوحالها ، أما من تنطلق بصيرته نحو الخلود فتكون رؤيته نورانية وغايته عظمى ومداركه أوسع.

تأثير المعانى على الرؤية

الرؤية تكون بالخلفية المعلوماتية للعقل ؛ أى أن الرؤية إدراك عقلى. والمجهول منعدم الرؤية، فالإنسان يرى (أو يدرك من) الحقيقة بقدر ما لديه من معارف ومعلومات صحيحة عنها. فصاحب العلم الغزير فى مسألة ما تكون رؤيته لها جيدة ، وصاحب العلم المحدود بقضية ما تكون رؤيته لها قاصرة. والمعلومات الصحيحة تدل على نسبة من الحقيقة بقدر اكتمال المعلومات وحسن تنظيمها. والمعلومات الخاطئة تدل على وهم لا وجود له فى الحقيقة. والمعلومات التى هى مخاليط من الصحة والخطأ تدل على صور مزيفة للحقيقة ولكن كثرة إعمال العقل فيها يمكن من تنقيتها. ومعلومات العقل التى تشكل أساس رؤيته لها أكثر من مصدر:

١- إدراك بالحواس والتجارب والخبرة، وهذا المصدر لا يخلو من الزيغ والقصور ويجدى فيه التطوير المستمر ، وهو مطلوب

٢- أخذ عن مبلغين ليسوا كلهم صادقين ولا أقوياء الذاكرة، لذلك يلزم التيقن من صدقهم قبل الأخذ عنهم ، أو عن مُعلم لا يخلو من النقص ، فيلزم الحذر.

٣- استنتاج عقلى وإدراك للمعانى لا يخلو من الخطأ ، ولذلك يحتاج لمراجعة.

إذن معلومات الإنسان هى مخاليط ولذلك فرؤيته للحقيقة مهزوزة - حتى فى أحسن الحالات ، ولهذا السبب يجب أن يكون العقل أنشط ما يتيسر أو ما يمكن.

والمعلومات الصحيحة غالبا ما تكون كامنة خلف أكوام من المعلومات الخاطئة ، الموهومة أو المتوارثة ، أو الموحى بها من قبل المغرضين والشياطين وأعوانهم. فالأوهام والأكاذيب والأباطيل والخرافات تكون منتفخة أو منتفشة أو متورمة فتطفو على السطح ؛ نظرا لخفة وزنها وتفاهتها ، فإنما هى زبد راب ، وتكون كثيرة ورخيصة ومعروضة بإلحاح أو ضمن مغريات ومسابقات مصطنعة ، وإلحاح فى ترويجها قبل أن يتبين فسادها. أما المعلومات الصحيحة الحقيقية (ذات الثقل) فتكون تحت السطح أو قرب القاع ، ولا تعرض نفسها ولا يُلح صاحبها فى عرضها ولا تُدرك بدون سعى ولا تفسد ، بل تمكث إلى أن يأتى

طالبها. تلك مشيئة العليم الحكيم: ﴿... **فَأَمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾ الآية 17 – سورة الرعد. والزبد المنتفخ يحجب رؤية الحقيقة الراسية ، فالحقيقة لا تُدرك إلا ببصيرة نافذة وشفافية تكشف ماوراء أو تحت **الزبد** وما أكثره وأكثر تُجاره فى هذا العصر.

مما سبق ، يتبين أن رؤية ما يتيسر من الحقيقة فى الدنيا يلزمها بصيرة ، ولا تكفى الأبصار ولا الحواس ولا الجوارح. وفى شكل (1) نحاول تصور علاقة البصيرة بالعقل وعلاقة العقل بالجوارح.

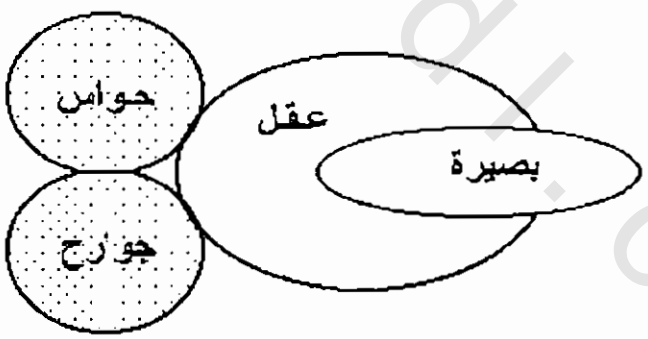

شكل (1). تصور اتصال الحواس والجوارح والبصيرة بالعقل.

والحقيقة ليست كلها مشهودة ، بل لها شق يمكن مشاهدته ولا يجوز إنكاره ، وشقها الأعظم غيبى يتعذر مشاهدته ، وليس من العقل إنكاره أو رفضه ، إلا إذا توفر لدينا دليل يدحضه. ولكن بعض المسائل الغيبية يمكن الاستدلال عليها بما وهبنا الله من عقل ، كما سنوضح فى فقرة تالية. ومن يتجاهل الشق الغيبى فسوف ينحصر تفكيره فى حدود الحواس والجوارح ، والذهن وسيظل يدور فى حدودهما المحدودة ، ولن يشعر بالراحة النفسية أبدا ما دام على هذا الحال ، برغم ما قد يتوصل إليه من نتائج مادية نتيجة المجهود الذهنى المضنى.

أما من يفتح عقله لفكرة وجود شق غيبى – تدل عليه المعانى – يقابل الشق المشاهد ، فسوف يجد أن القضية صارت أكمل وأرحب بكثير مما كان يظن ، وأن للعقل رؤية أبعد وأعمق مما تلمسه الحواس وأن ما لدى الإنسان من علوم ومعارف هى القاعدة التى يرتفع فوقها لا ليغتر ، ولكن ليتمكن من حسن الرؤية وسعة الأفق.

فمن يُحاط علما وتأكيدا بثلاثة أرباع القضية – مثلا – يمكنه الاستدلال على الربع الباقى أو توقع هيئته أو حالته ويمكنه تقييم الخبر الخاص به – عقليا – وإلا فما الفرق بين الإنسان وبين العجماوات! وما معنى التصور؟ ولنضرب أمثلة كالموضحة فى الشكل رقم (٢). ففى شكل (2-A) يمكن بالعقل ، وبالعقل فقط ، أن ندرك أن الرقم الغائب (الخفى) فى المستطيل الأخير من الشكل هو العدد ١٠ ، فإن أتانا مبلغ يبلغنا بذلك فيجب على العقلاء أن يرحبوا بهذا

التبليغ ؛ لأنه يتفق مع ما عرفوه ورأوه بعقولهم ، قبل أن يأتيهم خبره أو يتجسد أمام أعينهم.

وإذا جاء مبلغ يقول بأن الرقم المغيب من المستطيل الأخير فى شكل (2-B) هو الرقم 8 فسوف يكون الرفض هو الأسبق إلى حين تقديم دليل وشرح وتعليل التناقض القائم بين الاستنتاج العقلى والخبر المتجسد أو المبلغ ؛ لأن العقل يرى من السياق أن الرقم المغيب هو 0 . وتلك أيضا رؤية عقلية بمعلومية معلومات (أرقام) مشاهدة وواضحة فى المستطيلات الخمسة التى تسبق المستطيل موضع الخلاف.

شكل (2). أمثلة الاستدلال العقلى.

والآن نترك للعقل المتجرد من عقابيله – مهما كانت بساطته أو عبقريته – ليكمل المستطيل الأخير فى شكل (2-C) ، فبماذا سيكمله؟ نترك الجواب للقارىء. فإذا جاء رجل من قريش – صلى الله عليه وسلم – يقول : ما أنا إلا مبلغ ولا أسألكم عليه أجرا ولست صاحب مصلحة ، ولا أطلب دنيا ، ولن

أبنى قصرا ، ولا أورث دينارا ولا درهما ، "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم" ، ولا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ، والذى أوجدكم من العدم (الموت) يحذركم قائلا : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ – الآية 28 – سورة البقرة. فبماذا يجب أن نجيب هذا المبلغ (صلى الله عليه وسلم)؟

فعلا لقد كنا فى حالة عدم (موت أول) ، ثم أصبحنا فى حالة حياة ، وحالة الموت الثانى ماثلة أمام أعيننا يوميا ونحن ميتون لا محالة. إذن المستطيلات الثلاثة من شكل (2-C) مكتملة أمام أعيننا وحالة المستطيل الرابع هى المغيبة مؤقتا عن حواسنا ، ولكن هل يجوز أن تكون غائبة عن عقولنا! الجسم البشرى مكون من خلايا ، فكم مليون خلية تموت وتحيا فينا يوميا ، إنه موت صغير وحياة دنيا. نعم الإنسان أنموذج مجسد للموت والحياة فهما متفاهمان ليكونا شبحا يدب على الأرض ، وحين يطغى أحدهما على الآخر فذلك أذان بنهاية هذا الطور الشبحى ، أذان بالموت الكبير استعدادا لحياة الخلود. اللهم اجعل خير أيامى يوم ألقاك يا أكرم الأكرمين يا مجيب السائلين.

الرؤية بالعقل

يتميز الإنسان بين بقية المخلوقات التى نعرفها بالقدرة على التصور وإدراك الأشياء غير الحاضرة أمامه ، أى الغائبة. فالإنسان يستطيع بناء على المعلومات

والوصف أن يكون قدرا معتبرا من الصورة أو الموقف ويستخلص منها نتائج وتكون له رؤية حول موقف أو مشهد لم يشهده ، أو لم يتجسد بعد ، وفى التقنيات الحديثة أصبح للنمذجة والمحاكاة دور نشط فى استحضار غير الموجود حقيقة ، ويُستنتج من ذلك نتائج علمية يبنى عليها.

ومن أمثلة الرؤية بالعقل ، ما جاء فى السيرة العطرة أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يحفر فى الخندق ؛ ليحتمى المسلمون خلفه ، من شدة طغيان قوى الشر ، ويحدثهم عن فتح حصون كسرى بن هرمز ، رغم عسر الموقف وضعف المقومات المادية. تلك عظمة البصيرة ، وقدرة العقل على تخطى حواجز الزمان والمكان.

ومن خلال النصوص القرآنية يرقى بنا ربنا فى مستوى الخطاب على أساس أنه – جل شأنه – قد أنعم علينا وزودنا بنعمة العقل الذى يمكننا من التصور واستحضار مواقف لم نحضرها ، وقد ورد ذلك فى مواضع عديدة ، فمثلا يقول – سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ الآية 6 – سورة الفجر. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الآية 1 – سورة الفيل. مشاهد لم يشهدها المخاطب ، لا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا أتباعه ، ولكنها كانت مشهورة وأخبارها معروفة وشهودها حضور ، ويمكن للعقل أن يتصورها ويستخلص منها النتائج والعبر ، وماذا يفيد حضور المشهد أكثر من ذلك! وكل مشهد حاضر سوف يصبح بعد لحظات غير مشهود ، ولكن تبقى

العبر والمواعظ لمن يريد أن يتعظ. إنه الأسلوب القرآنى الفريد للتدريب على الإيمان بالغيب ، لمن يريد أن يتدرب ويرقى عقليا. إن للمشهد مكونات مادية تتبدل وتزول لكن يبقى المعنى. والكثير من المشاهد القرآنية عرضت دون التركيز على مادياتها أو تواريخها أو مواقعها ، بل كان التركيز على معانيها ؛ فهى التى تفيد.

غيب الماضى أيسر قبولا وتصورا من غيب المستقبل ؛ لأن غيب الماضى يكون موصوفا ، وأحيانا يكون وصفه مفصلا وموثقا وبقاياه وآثاره ما زالت موجودة ، أما غيب المستقبل فمجرد إخبار موجز بلا بقايا ولا آثار ولا شهود ولا وثائق ، ولذلك فيحتاج إلى جهد أكبر للتصور ومصدر موثوق ؛ لزوم التصديق. ﴿... **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ الآية 93 - سورة الأنعام. ﴿... **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ الآية 50 - سورة الأنفال. مشاهد لم يشهدها أحد من أحياء البشر ، ولكن على العاقل أن يتصورها، فإن لم يستطع فليحذرها ويتقى عذابها. أما تجاهلها أو نسيانها أو التكذيب بها فمن موجبات استحقاقها - **فاعتبروا يا أولى الأبصار.**

خصوصية الرؤية

الإنسان المبصر يرى لنفسه ، أما الأعمى فيضطر للانقياد لمبصر ويفتقد نسبة كبيرة من حرية حركته مضطرا ، ولا إثم عليه ولا حرج ؛ لأن التعويض فى المجال المادى محدود - لحكمة - فى هذه **الحياة الدنيا**. ولكن الحال يختلف فى المجال المعنوى ولا يحتاج العاقل لأن يسلم عقله لغيره ، كل عاقل مطالب بأن تكون له رؤيته الخاصة وملزم بطائره **فى عنقه**. يمكن أن يتحرك الإنسان بجسمه وجوارحه خلف قائده ، طائعا أو مكرها ، ولكن يجب ألا يكون كذلك فى رؤيته. يمكن أن أتفق مع القائد فى كثير من النقاط والآراء لكن تظل لى رؤيتى العامة المميزة لكيانى وشخصيتى. أما تلاشى رؤية الإنسان فتلك مصيبة كبرى ومثالها الصارخ - لمن يعتبر - ورد فى محكم التنزيل بتصوير بيانى معجز: ﴿... **قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلا مَآ أَرَى وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ الآية 29 - سورة غافر. الطاغيه يريدهم ألا يروا إلا من خلال عقله رغم غبائه وحماقته ، يريد تعطيل عقولهم وتعمية بصائرهم ؛ حتى لا يبصروا الحقيقة ، فينكشف زيف أسس الطغيان. وهذا هو أسلوب الطغاة فى كل عصر ومصر ، فلو كان فرعون صادقا فى هدايتهم إلى سبيل الرشاد ، فلماذا يحرص على تعمية بصائر أتباعه!

الرؤية الصحيحة تدرك ما يتيسر من الحقيقة ، والرؤية المغشوشة الزائغة ترى الوهم متجسدا عنكبوتيا. وحين تزيغ الرؤية تبدو الأشياء على غير حقيقتها ،

وزيغ الرؤية ينتج عن الجهل فكلما تعمق الجهل كلما زاد الزيغ وتترجم إلى سلوكيات خاطئة. ولكل إنسان رؤية يتصرف على أساسها ، وتتباين الرؤى كالتباين بين السماء والأرض. وحالة الغفلة تجعل الإنسان يرى أو يود أن يرى الأشياء متوافقة مع رؤيته وخلفيته هو ، وإن كانت غير ذلك فيحاول أن يجعلها كذلك بشتى الوسائل وكلما اقتربت صورة الأشياء من الصورة التى يودها كلما شعر بسعادة.

ومن المعجزات القرآنية أن أعظم تصوير للسلوك الخاطىء الناتج عن الرؤية الخاطئة ورد فىالسورة المكية التى كان مطلعها أول ما نزل من القرآن الكريم: ﴿**كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى**﴾ - الآيات 6 و 7 - سورة العلق. الطغيان كسلوك منحرف ينتج عن خطأ فى الرؤية ، وضلال فى الفكر. والآية الكريمة توضح كيف يضل الإنسان فى نظرتة لأقرب الأشياء إليه وهى نفسه ﴿ **أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى** ﴾ أى رأى الطاغية نفسه مستغنيا ، وهو الذى لا يستطيع السيطرة على بوله وحبسه ليوم واحد! ولا يستغنى عن النفَس لدقائق معدودة! إن الطغيان هو تجاوز الحد بسبب خلل البصيرة. إن الإنسان حين يخطىء فى فهم حقيقة نفسه فرؤية كل شىء بالنسبة لها ستكون خاطئة ، وتلك حالة خلل شامل.

بالعقل نقول إن سلامة الرؤية شرط لسلامة الحركة ، ولذلك فضعف البصيرة يوجب شدة الحذر ، لا الاندفاع الأحمق ، لكن كيف تجتمع سلامة العقل

وضعف البصيرة؟ لا يجتمعان ، وكذلك ضعف العقل وسلامة الرؤية لا يجتمعان. الإنسان فى تحريك جوارحه وفى كل نشاطاته المادية فى الحياة يتجه نحو المستقبل مجبرا حتى ولو كان فكره مجذوبا للوراء ؛ لأن الزمن محكوم بأمر الله واللحظة التى تمر لا تعود أبدا ، إلى يوم القيامة ، لذلك فالإنسان أحوج ما يكون للرؤية السليمة لما أمامه ، لمستقبله ، للمحصلة النهائية التى لن تقبل التعديل ولا التصحيح.

الرؤية ليست ثابتة بل تتبدل وتتطور بتطور معلومات الإنسان. ورؤية الأشياء غير الحكم عليها ، فالرؤية هى أساس الحكم الحسن النية. وبما أن الرؤية تتطور بالمعلومات فيمكن للحكم المبنى عليها أن يتغير أيضا. ويمكن أن توجد الرؤية ، كأساس للحكم فى مسالة ما ، دون أن يبنى عليها حكم فورى ، فلا داعى لإصدار الأحكام دون ضرورة ، فالرؤية فى حد ذاتها نشاط عقلى مطلوب ، لكن الحُكم لا يُطلب دائما. والتأنى يتيح الفرصة لمزيد من وضوح الرؤية وبالتالى سلامة الحكم فقط حين يلزم ، فالإنسان لايحاسب على رؤيته ؛ لأنها أمر داخلى ولكن يحاسب على ما يبنى عليها من أحكام وأفعال. رؤية العاقل خاصة به (لنفسه) ، أما الحكم فقد يمس الغير ، فالحذر الحذر من التسرع فى إصدار الأحكام ؛ فالتسرع فى إصدار الأحكام قبل نضوج الرؤية مخاطرة لا داعى للإقدام عليها دون حاجة.

الحُكم قدر القاضى وأمانة ثقيلة التبعات ، ولذلك يبذل القاضى العادل قصارى جهده فى تقصى الحقيقة بكل الأدلة الممكنة بصبر طويل ورحابة صدر ، ويؤجل إصدار الحكم أكثر من مرة لاستكمال الأدلة (المعلومات الموثقة) لتأكيد سلامة الرؤية ؛ فعدالة الحكم رهن بسلامة الرؤية. والإحاطة الكاملة بحقيقة مسألة ما لا تتيسر إلا لله وحده ولذلك فهو المنفرد بالعدالة المطلقة فى الحكم على الأشياء وبين الأشياء ، ونحن فى هذا الكون مجرد أشياء ، ﴿... **إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾ الآية 57 - سورة الأنعام.

والأحمق هو الذى يصدر الأحكام ليل نهار ، حتى فى الأمور التى لا تعنيه ، دون أن يطلب منه ذلك ، فيكفر هذا ويجهل ذاك ويحقر فلانا ويمدح علانا ، وهو محاسب على كل ذلك لا محالة ، فما الداعى لذلك يا أيها العاقل!

الشيطان وحساسية الرؤية

خلصنا فيما سبق إلى أن الرؤية تكون بالعقل ، ومحتويات العقل هى التى تشكل الرؤية. فما هو الحال حين يكون للشيطان نوع من الوجود فى عقولنا ، أو حين يحتل الشيطان العقل! عندئذ تكون الرؤية بعيون الشيطان وتصبح التوجهات نحو ما يريد والسلوكيات تلبى رغباته هو ، وأعمالنا طاعة لأوامره غير المباشرة ، ونحسب أننا نطيع عقولنا ولكن الحقيقة ليست كلها كذلك.

الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، كما جاء فى الحديث الشريف ، ولا يكف عن الوسوسة ، حتى أثناء النوم يوسوس ، فقط عند ذكر الله يخنس ، وبعد ذلك يعود لممارسة نشاطه ولا نعرف متى يتعب أو يستريح ، ولا نحسب أنه يتركنا ما دامت الروح فينا. والشيطان لا نعرف له جوارح ؛ لأن طبيعة تكوينه لا ترى لعيوننا ، و لم نتأكد من أن شيطانا قطع طريقا بيديه ، أو أسال دما بسكينه ، أو ألقى قنبلة على مصنع ، أو نفث سموما لوثت البيئة ، ولكن الشيطان من خلال عقول أعوانه من البشر يحرك جوارحهم لتفعل ما يريد من تضليل وإفساد.

إن عبيد إبليس من بنى البشر ينتشرون بالملايين بل نزعم أنهم بالمليارات ، يحتل الشيطان عقولهم ويعبث بها كما يحب ، والسفهاء لا يعلمون ويحسبون أنهم يفكرون بعقولهم ويتصرفون بالعقل وأنهم العقلاء!!

هذا ليس مجرد كلام مرسل بدون دليل ، أو تصور خاص بالمؤلف ، لكن الدليل على احتلال إبليس للمليارات من عقول أوليائه هو حجم الشرور والمفاسد المنتشرة فى مختلف أرجاء المعمورة ، والتصرفات الشاذة التى تموج بها الدنيا. فهل فى العقل البشرى الفطرى من الأسباب المنطقية ما يكفى لدفع الإنسان لقتل أخيه أو أمه أو قتل نفسه بالانتحار؟ الجواب المنطقى بالنفى. إذن هناك دوافع غير إنسانية وراء هذه التصرفات.

ولنتأمل بعض الجمل التلقائية التى تتداولها كل الألسنة مـرورا بكـل العقـول فـى لحظة انتفاضة عقلية (ندم) دون أن نتدبر ما وراءها! مثل:

هذا تصرف غير إنسانى!

إننى لا أعرف كيف أقدمت على هذا الفعل!

أين كان عقلى حين فعلت ذلك!

هذا السلوك غير مقبول ولا معقول!

هذا العمل يتنافى مع أبسط مبادىء الإنسانية!

مثل هذه العبارات تشير إلى مُحرض خفى وراء الأعمال الشاذة التى تتنـافى مـع منطق العقل الإنسانى ، ولا يعقل أن يكون المحـرض جمـادا أو نباتـا أو حيوانـا ، والإنسانية تتبرأ منه ، إذن فمن يكون المحرض غير الشـيطان الـذى يعيـث فسـادا فى العقول الغافلة عن ذكر الله!

هناك عوامل وظروف تساعد الشيطان على افتراس العقل البشرى ؛ لأنـه يكـون فى حالة غفلة أو ضعف أو عدم توازن ، ونذكر من هذه العوامل ما يلى:

- الجهل وسوء الظن بالله البعد عنه.
- وفرة وسائل الترف والرفاهية واتباع الشـهوات ، فـيركن العقـل للكسـل والخمول.
- شدة المرض وآلامه ؛ مما يضيق الخلق ويضعف التحمل وينهك المخ.

وكم من البؤساء – الذين غرقوا فى بحار الجهل والغفلة – كفروا فى لحظات الاحتضار وخرجوا من الدنيا سود الوجوه ، خاسرين أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، تشيعهم شماتة إبليس.

إن الثانية التى تمر من عمر الكون لا تعود أبدا ، ولا يوجد لحظتان فى عمر الكون متماثلتان إطلاقا ؛ فكل لحظة فريدة بظروفها ومكوناتها وخلائقها. والدور الفطرى للعقل هو إدارة الكيان البشرى وتوجيهه فى كل لحظة حسب الظروف التى لا تكف عن التجدد ، ففى كل وقت يلزم ضبط اتجاه الحركة نحو الغاية ، ومراجعة معدلاتها فى حدود الطاقة. ونظرا للتبدل المستمر للظروف والأحوال ، فيجب يقظة العقل باستمرار ؛ للتأكد من سلامة الرؤية أولا ، ثم ضبط مؤشرات الحركة ثانيا. فأى نتائج نتوقع إن تمكن إبليس من المشاركة فى تشكيل الرؤية! الحذر الحذر ، يا أولى الأبصار.